

## الإمبراطورية الرومانية الغربية

في بداية العصور الوسطى نلمس تغيرات واسعة المدى في الإمبراطورية الرومانية والعالم الأوربي بوجه عام. وقد لعبت عدة عوامل أساسية دوراً هاماً في هذا التغيير، نذكر منها اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وانتشار الديانة المسيحية التي نقلت الإمبراطورية من العهد الوثني إلى عهد جديد انتصرت فيه المسيحية لتؤثر في حياة الناس وفكرهم طيلة العصور الوسطى وما بعدها. ومن العوامل الهامة التي أسهمت في هذا التغيير كان نقل العاصمة من الغرب إلى الشرق أي من روما إلى القسطنطينية وما ترتب على ذلك من نتائج، وانتقال مركز الثقل إلى الشرق وبقاء القسطنطينية مركزاً لتبلور الحضارة الهلنستية التي أصبحت من مميزات الإمبراطورية الشرقية أي الإمبراطورية البيزنطية. وفضلاً عن ذلك وجد عامل أساسي آخر لعب دوراً كبيراً في تغيير خصائص التاريخ الأوربي وخاصة في الجزء الغربي من أوربا، ونعني بذلك جماعات البرابرة الذين تدفقوا على الإمبراطورية الرومانية وانتهى المطاف بهم إلى الاستقرار داخل مساحات كبيرة من أراضيها.

ولفظ) بربري (Barbarian قديم جداً، فقد ورد في الألياذة اليونانية، وكان يدل على الاحتقار والأزدراء. ثم تحول معنى هذا اللفظ عند المفكرين من قدامى اليونان مثل أفلاطون وأرسطو، وأصبح يدل على الشعوب التي لا تفقه اللغة اليونانية، وعلى ذلك أصبح مدلول لفظ البربري عند اليونان مرادفاً لكلمة غير مثقف أو فظ. وقد أخذ الرومان هذا اللفظ وأدخلوه في لغتهم واستعملوه للدلالة على هذه المعاني، بل لقد أصبح يستعمل للدلالة أيضاً على القوى الأجنبية المعادية التي كانت تهدد الحضارتين اليونانية والرومانية. ونحن عندما نستعمل لفظ البربرية فيجب إلا يتبادر إلى أذهاننا أنها تعني بالضرورة الهمجية أو الوحشية، فإنها في غالبية الأمر تعني مرحلة من مراحل التنظيم السياسي الاجتماعي القبلي في مرحلته البدائية القائم فيها على أساس رابطة الدم .

والواقع أن هؤلاء البرابرة لم يعرفوا الحدود الثابتة بالمعنى المفهوم في تأريخ الدول المتحضرة المستقرة، وقد كانت الإمبراطورية الرومانية محاطة بهم من جميع جهاتها سواء كان ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر، كما كان هؤلاء البرابرة متعددين في أنواعهم ولم تقتصر

عناصرهم على الجرمان، فمن العناصر التي أثرت في تأريخ الإمبراطورية في مرحلة الانتقال من العصور القديمة إلى العصور الوسطى كانت مجموعة الشعوب الآسيوية الرعوية. وهذه المجموعة بدت في أول الأمر بعيدة إلى حد ما إلى الشرق من الإمبراطورية، ولكنها ما لبثت أن اتجهت غرباً لتضغط على الشعوب التي أمامها الواقعة إلى الغرب منها. ويلاحظ أنَّ هذا التحرك إلى الغرب كان نتيجة تزايد أعددهم وقلة المؤن الغذائية في موطنها الأول، ومن أبرز هذه الشعوب الهون والبلغار والمغول والأتراك بأنواعهم.

كما أحاطت مجموعات من الشعوب الكلتية والصقلية والجرمانية بالإمبراطورية. ولكن يجب أن نأخذ في اعتبارنا أن كل هذه الشعوب ما هي إلا فروع لأصل واحد هو الجنس الأوربي الهندي الذي تفرعت منه الشعوب الإيطالية والأرمينية واليرانية والهندية. والراجح أنَّ العناصر الأوربية الهندية على أختلاف فروعها قد وصلت إلى أوروبا عن طريق هجرة من الشرق صوب الغرب منذ زمن بعيد. فنزل الكلتيون Gelts في شمال أوروبا ثم قاموا بحركات توسعية في الخمسة قرون السابقة للميلاد. وقد نتج عن تحرك الجرمان صوب الجنوب والغرب أن لجأ الكلتيون إلى غالة وما يعرف بالجزر البريطانية وإيطاليا وبلاد اليونان وآسيا الصغرى، وتناثروا فيما بين البحر الأسود والمحيط الاطنطي، غير أنَّ مواطنهم سرعان ما أصبحت في نطاق الإمبراطورية الرومانية، واصطبغوا بالطابع الروماني بل اتخذوا المسيحية ديناً لهم. وبالرغم من تقدم الجرمان في فترة تالية، فإن الصفات الكلتية ظلت باقية في انكلترا وويلز وإيرلندا واسكتلندا ولم تتأثر إلا قليلاً بالمؤثرات الرومانية والجرمانية.

أمّا فيما يتعلق بالشعوب السلافية Slavs فقد كانت مستقرة أول الأمر في أواسط آسيا، ثم تعرّضت لضغط العناصر الآسيوية ومن بعدها للعناصر الجرمانية، الأمر الذي أدّى بكثير من العناصر الصقلية إلى الوقوع في الأسر والتحول إلى العبودية، ومن هنا جاء تسميتهم باسم السلاف Slave أي العبد، ولكن الصقلية أو السلاف ما لبثوا أن نهضوا من كبوتهم نهضة ملحوظة، وانتشروا وتحذوا العناصر المجاورة لهم.

وكانت أكثر المجموعات البربرية تأثيراً بشكل فعال ومباشرة في تطور تأريخ غرب أوروبا هي مجموعة الشعوب الجرمانية. ومعلوماتنا عن الجرمان في حياتهم الأولى أي قبل انتقالهم إلى داخل حدود الإمبراطورية الرومانية محدودة نسبياً لقلة ما جاء ذكره في المصادر التاريخية المتعلقة

بهم، ولكننا نستطيع أن نستقي بعض المعلومات الهامة في مرحلتهم الأولى مما جاء في كتاب المؤرخ قيصر Caesar والمؤرخ تاكتيوس Tactius (٥٦-١٧م)، والأخير كان من كبار موظفي الإمبراطورية الرومانية كما كان على اتصال بالجرمان الأمر الذي مكّنه من التعرف على بعض مظاهر حياتهم. والمهم أنّ هذه الشعوب قد تحركت صوب الإمبراطورية الرومانية، واتخذت هذه التحركات مراحل متعددة يمكن أن نجعلها في مرحلتين رئيسيتين، المرحلة الأولى: التي استمرت حتى عام ٣٧٥م شهدت تغييراً كبيراً في طابع العلاقات بين الطرفين، وهذا التغيير كان متاحاً بسبب عدة عوامل هامة، منها ما كان من تحركات العناصر السلافية وغيرها، وسخطها على الجرمان. ومنها أيضاً إزدياد أعداد الجرمان ونقص موارد سبل المعيشة عندهم، ثم تطلعهم إلى الإمبراطورية الرومانية بعدما عرفوا خيراتها، وعندما عرفوا أيضاً بأنّها دخلت في مرحلة الاضمحلال، الأمر الذي أغرى الجرمان وغيرهم من جيران الإمبراطورية على مهاجمتها والنيل منها. وهكذا بدأت هجمات الجرمان على أطراف الإمبراطورية. حقيقة أنّ الرومان نجحوا في التغلب على الهجوم الجرمانى الأول، إلا أنّ هجمات الجرمان ما لبثت أن تجددت في القرن الثالث الميلادي في عهد الإمبراطور كاركالا، وقد هاجم الجرمان حينئذ أقليم داكيا وظهر في هذا الإقليم القوط في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي.

وبتواجد القوط في داكيا بدأ تأثرهم بالمسيحية وبغيرها من مؤثرات الحضارة الرومانية، هذا ويمكن اعتبار نزول القوط في داكيا أساس يحدد قيام أول مملكة جرمانية داخل حدود الإمبراطورية وإن كان على مستوى محدود إلى حد ما، هذا ويجب أن نلاحظ في هذا المقام تلك العملية الهامة التي صاحبت هذه المرحلة من العلاقات مع الجرمان وتلك هي عملية التغلغل البطيء، فقد بدأ استقرار الجرمان بأعداد كبيرة داخل حدود الإمبراطورية كمزارعين للأرض وكجند مرتزقة يخدمون تحت راية الإمبراطورية بل وكقواد ووزراء لهؤلاء الأباطرة الرومان. يضاف إلى ذلك كله ما تم بين الجرمان والرومان من زواج وتفاعل اجتماعي.

أما المرحلة الثانية: فقد امتدت من عام ٣٧٦م حتى عام ٥٦٨م، فقد بدأ القوط في عام ٣٧٦م ينفذون إلى داخل الإمبراطورية بأعداد كبيرة، وفي سنة ٥٦٨م دخل اللبارديون إيطاليا. وفي هذه المرحلة التي استمرت حوالي قرنين من الزمان تجددت الهجمات الجرمانية واتخذت طابعا جديداً يتمثل في ضخامة هجماتها التي كانت تهدف من ورائها إلى الاستقرار داخل أراضي الإمبراطورية،

حقيقة أنه تخلل هذه الحقبة الزمنية بعض الغزوات المحدودة التي جاءت بغرض السلب والنهب ثم العودة مرة أخرى إلى مواطنها الأصلية، ولكن مثل هذه الهجمات لا تهمنا بالقدر الذي نهتم به بالغزوات الضخمة التي كانت من خصائص هذه الفترة. ومن الطبيعي أن تثير الغزوات الكبرى المخاوف والرعب في المجتمع الأوربي، الأمر الذي سجلته لنا كتابات عدد من المؤرخين والكتاب الأوربيين المعاصرين. فقد تجلّى في هذه الكتابات رعب وفرع سكان الريف والمدن. ومن ذلك كتابات القديس جيروم حيث قال: " كان المسيحيون يجري قتلهم في الكنائس، كما أصبحت الأرامل والعذارى ممن وهبن أنفسهن للسيد المسيح في جملة الغنائم التي سلبتها هذه الوحوش المفترسة. لقد أسروا الاساقفة وقتلوهم وهدموا المذابح وعم الشقاء في كافة البلاد التي مر فيها البرابرة ". أمّا القديس أمبروز فكان يرى في البرابرة: "حيوانات مجردة من كل عاطفة، ولا تعرف سوى الفجور والسلب والنهب". ولكن يجب إلا تجعلنا أمثال هذه الكتابات نحكم بأن البرابرة كانوا مجرد غزاة هدامين ومخربين، فالكثير من المدن الرومانية القديمة بقيت سالمة على حالها إلى ما بعد غزوات البرابرة الجرمان. ونضيف أنّ هذه المرحلة من غزواتهم أصطبغت بحرص شديد من الجرمان على الاستفادة من الحضارة الرومانية واقتباس مقوماتها. وسنعرض فيما يلي الدور الذي قامت به الجماعات الجرمانية الرئيسية في هذه المرحلة وما كان لها من نتائج وآثار.

#### أولاً: القوط الغربيون Visigoths

في القرن الرابع الميلادي جاءت من أعماق الإستبس التي تمتد حتى تخوم أوروبا وآسيا موجة من التحركات البشرية هزت كل عالم البرابرة، وتسببت في حركة عظمى للشعوب التي اسقطت الإمبراطورية الرومانية العريقة، فعناصر الهون التي استقرت منذ القرن الثالث قبل الميلاد في السهول الكبرى لآسيا الوسطى وراء بحر قزوين أخذت تتقدم بالتدريج نحو الغرب. ونتيجة للانقسام الداخلي بين هذه العناصر انقسم الهون إلى قسمين؛ الأول هو قبائل الهون البيض التي بثت الرعب في بلاد فارس، بينما اندفع القسم الثاني نحو أوروبا عابراً نهر الفولجا دافعاً في طريقه الشعب الآلاني Alani الذي اقام بين البحر الأسود وبحر قزوين، وعبر الهون والآلاني نهر الدون وانقضوا على أمة القوط الكبرى التي وحدها هرمانريك Hermanric ، ونتيجة لذلك تحرك القوط الغربيون إلى ضفاف نهر الدانوب وهي الحد الفاصل بين هؤلاء البرابرة والإمبراطورية الرومانية.

وعند هذه المرحلة حصلوا على إذن من الإمبراطور فالنز بعبور نهر الدانوب، ووافق الإمبراطور في عام ٣٧٦م على عبورهم إلى منطقة مواشيا، وانتهى بهم الأمر إلى الاستقرار داخل الإمبراطورية كوحدة قومية. وإزاء تعسف الموظفين الرومان وأساءة معاملة القوط الغربيون، قابلت القوط الغربيون هذه الاستضافة بالثورة والتطلع إلى الاستقلال. وقد أدى ذلك إلى اصطدام القوط الغربيين بقوات الإمبراطورية، وخاض الطرفان معركة كبيرة وهامة للغاية في تأريخ أوربا هي معركة أدرنه Adrianoph في آب/اغسطس عام ٣٧٨م، قتل فيها الإمبراطور نفسه.

تمثل معركة أدرنه أول انتصار كبير حققه القوط الغربيون على الجيش الروماني، وقد أظهرت المعركة تفوق سلاح الفرسان السريع الحركة والذي كان الأساس في جيش القوط الغربيين على سلاح فرق المشاة الرومانية، ولم يغادر القوط الغربيون الأراضي الرومانية بعد هذه المعركة، واخذوا بشكل عام منذ هذا التاريخ يقيمون ممالكهم ضمن حدود الإمبراطورية.

وقد استطاع ثيودوسيوس الأول الذي تولي حكم الإمبراطورية بعد الإمبراطور فالنز معالجة الخطر القوطي بعدما لجأ إلى الحكمة والدبلوماسية بدلاً من الحرب، فقد عقد معهم إتفاقاً في عام ٣٨٢م أصبحوا بموجب معاهدين له وأعفاهم من الضرائب المفروضة عليهم مقابل الخدمة العسكرية في صفوف الجيش الإمبراطوري، كما نجح بالدهاء في نقل بعضهم إلى آسيا الصغرى وتراقيا.

ويبدو ظاهرياً أن الإمبراطورية الرومانية قد قبلت استضافة القوط الغربيين على هذه الصورة كان من باب التفضل، ولكن واقع الأمر أن الإمبراطورية لم تكن تجرؤ على غير ذلك. فقد كانت الإمبراطورية في سابق عهدها تؤلف البرابرة في مستعمرات بعد أخضاعهم، أما في هذه المرحلة فقد أخذت تستقبلهم لتفادي أخطائهم وليس بدافع الكرم. ومع تغلغل البرابرة زاد نفوذهم داخل الإمبراطورية وصرنا نجد منهم الوزراء والقادة العسكريين في الحكومة الإمبراطورية مثل ستيلكو Stilicho الوندالي الأصل، وروفينوس Rufinus القوطي، وأربوجاست Arbugast القائد الفرنجي.

وزادت جراءة البرابرة في هذه المرحلة خاصة أن الإمبراطورية كانت تمر بمرحلة من الضعف، فأخذوا يقتحمون حدودها بالقوة وأصبحوا سادة الأرض الرومانية. ولقد وصل الغزو هذه

المرحلة عندما آل أمر الإمبراطورية إلى ولدي ثيودوسيوس وقسمت بينهما عام ٣٩٥م، وهنا ضاعت وحدة الإمبراطورية إلى الأبد. وبموجب هذا التقسيم حصل هونوريوس على القسم الغربي وعاصمته روما، بينما كان الجزء الشرقي من نصيب أركاديوس وعاصمته القسطنطينية، واستمر هذا الجزء ألف وثمانية وخمسون عاماً بعد هذا التقسيم أي حتى عام ٤٥٣م حين خضعت القسطنطينية لنفوذ الأتراك العثمانيين، في حين لم يستمر الجزء الغربي سوى واحد وثمانين عاماً أي حتى عام ٤٧٦م عندما سقطت روما في يد القائد الجرمانى أوداكر. Odoacer. ومنذ عام ٣٩٥م حتى سقوط روما عام ٤٧٦م كانت الإمبراطوريتان رغم استقلال كل منهما عن الأخرى توحدان قواتهما للدفاع المشترك.

وخلال هذه المرحلة وما بعدها توفرت للإمبراطورية الشرقية الحماية نتيجة الحواجز الطبيعية لنهر الدانوب وجبال البلقان، يضاف إلى ذلك أن الاتجاه العام لتقدم البرابرة كان ضد الغرب أكثر من الشرق بفضل ما اتخذته الإمبراطورية الشرقية من احتياطات للدفاع عن أراضيها وحصانة القسطنطينية التي أصبحت العاصمة الجديدة للعالم الرومانى، في حين ظلت روما مجرد ظل لعاصمة.

ولما كانت الإمبراطورية الغربية هدفاً لكل الهجمات الكاسحة، لذلك نجد في غضون نصف قرن فقط هجمات للقوط الغربيين والسويفي Suevi والوندال والآلانيين Alani وأخيراً اتىلا Attila على رأس قبائل الهون. وكان يتعين على الإمبراطورية الغربية أن تكون على درجة من القوة تفوق ما كانت تملكه في هذه المرحلة.

ولعل أهم الأحداث في تأريخ القوط الغربيين هو اختيارهم الاريك Alaric زعيم إحدى الأسر القوطية اللامعة قائداً وزعيماً لهم عقب وفاة الإمبراطور ثيودوسيوس الأول عام ٣٩٥م. وكانت بداية الأحداث عندما رفضت الإمبراطورية دفع الجزية السنوية المقررة لهم، فاندفعوا إلى إقليم تراقيا ومقدونيا يسلبون وينهبون دون مقاومة تذكر.

وعلى أية حال فقد كان للإمبراطورية من يدافع عنها ممثلاً في شخص القائد ستيلكو الوندالي الأصل الذي عهد إليه ثيودوسيوس الأول برعاية ولديه وهو على فراش الموت. وأسرع

ستيلكو للتصدي للقوط الغربيين وحاصرهم على جبل فولي pholoe في أركاديا، ولكنه إما نتيجة الإهمال أو من باب السياسة تركهم ينجون بأنفسهم عبر مضيق

نوباكتوس Naupactus ، وللحيلولة دون أعمال نهب أخرى قام الإمبراطور الشرقي اركاديوس بتعيين الاريك رئيساً للجند في منطقة الليريا.

وما كان مثل هذا التشريف السلمي يرضى زعيما بربرياً مرفوعاً على دروع مواطنيه. لذلك قاد الاريك قومه وغزا إيطاليا ودخل ميلانو، ويحتمل أنه استطاع أن يحاصر الإمبراطور هونوريوس في آستي Asti ، ولكن الإمبراطور نجح في الفرار، ولحسن الحظ أسرع ستيلكو إلى ميدان المعركة وانقذ الإمبراطور ودحر القوط الغربيين في بولنتيا Pollentia عام ٤٠٢م.

ويقال أنَّ الاريك كُرمَ مرةً أخرى بعد هزيمته في إيطاليا كما حدث له عند هزيمته في اليونان، فقد عيّنه هونوريوس قائداً وعهد إليه سراً بمهمة غزو الليريا لحساب الإمبراطورية الغربية، وربما قصد بذلك إبعاده عن طريق الإمبراطورية في الغرب، ويرى البعض أنَّ في ذلك عملاً مخجلاً ووضيعاً.

وعلى أية حال فقد اعتبر هونوريوس نفسه منتصراً على قوط الغرب واحتفل بانتصاره في مدينة روما، ثم عاد إلى مدينة رافنا حيث تطيب له الإقامة بها بعيداً عن روما وما يحاق بها من أخطار، وعن ميلانو التي سبق أن حاصرها الاريك من قبل.

وقف الاريك في تراجعه عند رأس البحر الادرياتيكي، وسمح له موقعه بين الإمبراطوريتين أن ينفذ على أي منهما حسبما توافته الفرصة. وانجذب للمرة الثانية نحو الإمبراطورية الغربية، ومع أن ستيلكو كان قد هزم القوط الغربيين فإنه استمر في إقامة علاقات المودة مع رئيسهم الاريك، كما احتفظ بقوة تقدر بثلاثين ألف بربري في إيطاليا على نفقة الإمبراطورية إمّا لإعجابه بإقدامهم وشجاعتهم أو لآفته رغب في الاعتماد على مساعدتهم لينصب ابنه إمبراطوراً على الغرب. وانزعج الإمبراطور هونوريوس لهذا الأمر فقتل ستيلكو عام ٤٠٨م وأمر بقتل كل معاونيه من البرابرة في إيطاليا، وهرب بعضهم إلى الاريك فعاد معهم للانتقام لهم في العام نفسه.

عبر الاريك جبال الألب واتجه إلى أسوار مدينة روما التي أرسلت نوابها إلى معسكره طالبين السلام، واغتر الاريك فقال للنواب "كلما كانت الحشائش كثيفة، كلما كان الرعي أفضل"،

مشيراً بذلك إلى خيرات المدينة وإلى الغنائم والأسلاب التي يمكن الاستيلاء عليها. ورغم ذلك فضل الأريك السلم على الحرب ووافق على عقد معاهدة جعلت العاصمة القديمة للعالم الروماني رهناً يدفع خمسة آلاف قطعة من الذهب وثلاثة آلاف قطعة من الفضة. واتجه الأريك بعد ذلك إلى توسكانيا حيث قضى الشتاء.

وسرعان ما أدرك الأريك أنه أهين واستهين بقدره فعاد إلى روما والقى عليها الحصار، فانقطعت عنها الامدادات التي كانت تصلها من صقلية واجتاحتها مجاعة مريعة. وأذن مجلس شيوخ المدينة للغزاة، فخلعوا القائد الروماني أطلوس Attaius وعينوا الأريك بدلاً منه.

وتحرك الإمبراطور هونوريوس واستمال أحد قادة القوط الغربيين ويدعى ساروس Sarus واغراه بأن يباغت معسكر مواطنية. وعلم الأريك بهذه التحركات فاستدار للمرة الثالثة تجاه روما عام ٤١٠م وسقطت المدينة في الرابع والعشرين من أغسطس/اب في العام نفسه ونهبت منازل النبلاء واحترقت، ولكن الخسائر في الأرواح كانت قليلة، كما نجت الكنائس من كل ضرر ولم يلحق بالآثار القديمة ضرر بليغ، رغم أن الأريك كان أريوسي المذهب. وروع العالم المسيحي لأخبار سقوط المدينة واعتبروها نهاية العالم.

وبعد ما سقطت روما في يد القوط الغربيون اقترح الأريك عبور البحر المتوسط إلى الساحل الأفريقي، ولعله كان يقصد من وراء ذلك إلى إسكان القوط الغربيون بصفة دائمة في الساحل الأفريقي أو في صقلية، ولكن سفن النقل تحطمت بعاصفة مفاجئة. ومات الأريك نفسه في أواخر عام ٤١٠م بمدينة كوسنزا Cosenza، واحتفل البرابرة بتشييع ودفن جثمان قائدهم المظفر بطريقة اسطورية، ولكي يمنعوا احتمال تدنيس الرومان لجثمانه كلفوا أسراهم بتحويل مجرى نهر بوسنتو Busento الذي كان يجري داخل مدينة كوسنزا وإن يحفروا قبراً في قاع النهر ودفنوا الأريك محاطاً بالغنائم والأسلاب النفيسة التي حصل عليها في انتصاراته، ثم أعيد النهر إلى مجراه القديم وقتل الأسرى الذين قاموا بالعمل على المقبرة حتى لا يُذاع هذا السر.

وخلف الأريك شقيقه أثولف Athaulf (٤١١-٤١٥م) وكان أثولف معجباً بالإمبراطورية ويرغب في إفاقتها من عثرتها على يد شعبه ولمصلحته. فبدأ بعرض خدماته على الإمبراطور الغربي هونوريوس، وفي كانون الثاني/يناير من عام ٤١١م تزوج شقيقة الإمبراطور الأميرة



بلاسيديا Placidia التي كان القوط الغربيون قد احتفظوا بها أسيرة عندهم أو رهينة، ووعد أتولف بأن يطرد من بلاد الغال وإسبانيا الغاصبين الذين كانوا يتآمرون هناك للاستيلاء على العرش الإمبراطوري.

وقد ادّعى ثلاثة أنهم أباطرة ولبسوا العباءة الأرجوانية في كل من أسبانيا وغانة. أولهم يدعى قسطنطين وثانيهم يدعى مكسيموس Maxmus وثالثهم هو جيرونتئوس Gerontius ونجح أتولف في خلع هؤلاء الثلاثة دون صعوبة، ولكنه سرعان ما ظهر أثنان آخران هما جوفينوس Jovinus وسباستيان Sebastian ونجح أتولف في الانتصار عليهم ثم دخل إسبانيا لطردهم البرابرة الذين كانوا قد اجتاحتها. وانتهت حياة أتولف عندما أعتيل في برشلونة عام ٤١٥م.

وتولى أمر القوط الغربيين بعد ذلك سنجرىك Singenc الذي حكم لمدة سبعة أيام فقط ثم لقي مصرعه، ولم يبق يعمل ما في هذه الفترة سوى قتل أولاد أتولف، ثم تولى واليا Walia (٤١٥-٤٢٠م) حكم القوط الغربيين بعد ذلك. وحاول واليا الإبحار إلى أفريقيا ولكنه عجز عن عبور مضيق عمودي هرقل (جبل طارق) مما يدل على ضآلة خبرة القوط الغربيين بالملاحة البحرية. وبعد أن عاد إلى قلب إسبانيا أخذ ينازع الآلان والسويفي والوندال ملكية ذلك الإقليم لمصلحة الإمبراطور الروماني الغربي.

وبدأ احتكاك هذه القبائل بالإمبراطورية يرجع إلى أن هذه القبائل تركت شواطئ البلطيق تحت قيادة راداجياسوس Radagaisus واتجهت نحو الجنوب دافعة معها الشعوب التي قابلتها في الطريق وهي القبائل البرجنديّة والآلانية والوندالية. وقد انضمت إليها هذه القبائل بكل سهولة في نهب الإمبراطورية لأنها شهدت وراءها الجزء الأكبر من جحافل الهون تتجمع منذرة بالزحف. وعبر جبال الألب مائتاً ألف من عناصر السويفي وما انضم إليها تاركين وراءهم جزءاً كبيراً على ضفاف نهر الراين.

وهبطت هذه العناصر إيطاليا متغلغلين فيها حتى وصلوا فلورنسا Florence وأسرع ستيلكو مرة أخرى إلى انقاذ روما والإمبراطورية فحاصر البرابرة على صخور فيسول Fiesole حتى هلك عدد كبير وأسر الباقي وبيعوا عبيداً. ولقي قائدهم راداجياسوس نفسه مصرعه. ولما علم البرابرة الذين بقوا في ألمانيا بأنباء الكارثة غيروا وجهتهم وهاجموا بلاد الغال Gaul ، وعبروا الراين

عام ٤٠٦م على الرغم من مقاومة الفرنجة البريون Ripuanan Franks الذين كانت روما قد عهدت اليهم بالدفاع عن نهر الراين.

ومنذ ذلك التاريخ ولعامين كاملين كانت بلاد الغال فريسة عمليات النهب والسلب المريعة التي لم تنقطع إلى أن استدارت قبائل السويفي والآلان والوندال تبحث في جنوب جبال البرانس عن مستقرات لها بعدما فشلوا في الحصول عليها في الشمال.

وواكب هذه الأحداث ما كان يقوم به واليا من تطهير إسبانيا من هذه القبائل لمصلحة الإمبراطور هونوريوس، وعلى الرغم من هزيمة قبائل السويفي أمام قوات واليا فإن زعيم قبائل السويفي انقض على جبال البرانس وجاليسيا حيث أسس في عام ٤١٩م مملكة قامت في ظل مليكها رشيلا Rechila ورشياروريوس. Rechoarius ونجحت عناصر السويفي في الفترة من ٤٣٨ حتى عام ٤٥٥م في أن تغزو كل إسبانيا لولا تدخل القوط الغربيون لوقف تقدمها، وكان ثمن ذلك أن اعاد الإمبراطور هونوريوس مقاطعة أكويتين Aquitaine مع عاصمتها تولوز Toulouse للقوط الغربيين مكافأة على خدماتهم. وانتشر القوط الغربيون في بلاد الغال حتى نهر الرون والوار، ثم عادوا إلى إسبانيا مرة أخرى ليعملون لحسابهم. وقد نجح القوط الغربيون في هزيمة قبائل السويفي في إسبانيا عام ٤٥٦م وتمكن ليوفيجلد Leovigild (٥٧٠-٥٨٦م) في عام ٥٨٥م من إخضاعهم، وبذلك آلت إسبانيا كلها إلى القوط.

وهكذا قامت في العشرين سنة الأولى من القرن الخامس الميلادي عدة ممالك بربرية استمرت لفترات متفاوتة ولكنها سرعان ما زالت. فقد زالت السويفي عام ٥٨٥م واتجهت مملكة القوط الغربيين إلى إسبانيا عام ٥٠٧ بعد هزيمتها على يد الفرنجة، ثم زالت دولة القوط من إسبانيا على يد العرب المسلمين عندما فتحوا إسبانيا عام ٧١١م.

وعلى أية حال فقد مات ملك القوط الغربيين واليا عام ٤٢٠م ومات الإمبراطور الروماني الغربي هونوريوس بعده بثلاثة أعوام (٤٢٣م) بعد ما عجز عن الدفاع عن ممتلكاته أمام أخطار العناصر الجرمانية، ولم يخلف وراءه سوى حمايته للكنيسة وكثيراً من القرارات التي قضت بتدمير الأصنام والمعابد، وتحظر توظيف الوثنيين والمهرطقين في الوظائف العامة. وخلف هونوريوس ابن أخته فالنتينيان الثالث ابن بلاسديا، والكونت قونسطانتو الذي تزوجته بعد وفاة اتولف القوطي.

وكان فالنتينان يبلغ من العمر ست سنوات لذلك ظل تحت وصاية والدته. وخلال هذه المرحلة كانت بلاخريا Pulcheria تحكم الإمبراطورية الشرقية وصية على شقيقها الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني Theodosius II (٤٠٨-٤٥٠م) الذي خلف والده اركاديوس. وانهالت كوارث جديدة على الإمبراطوريتين تحت حكم هذين الإمبراطوريين القاصرين اللذين تسيطر على كل منهما امرأة، ويستعين وزراؤها وقادتها بالبرابرة في التنافس ودسائس القصر. وكان لهذا كله أسوأ النتائج على الإمبراطوريتين في المراحل اللاحقة، ونجحت العناصر الجرمانية في التوغل في جوف أوروبا خاصة البرجنديون والوندال وغيرهم.

### ثانياً: البرجنديون: Burgundians

البرجنديون من الجرمان الشرقيين الذين نفذوا إلى إقليم سيليزيا Silesia قرابة عام ١٥٠م، ثم دخلوا وادي المين بعد ذلك بقرن من الزمان، ثم شقوا طريقهم إلى نهر الراين فبلغوه في نهاية القرن الرابع الميلادي. وقد سمح لهم الرومان بامتلاك الأراضي الواقعة على جانبي نهر الراين بقصد حماية الحدود من غارات الألمان، واتخذوا من مدينة ورمز Worms عاصمة لهم. وقد استخدمتهم الإمبراطورية في إدارتها المدنية للعمل كموظفين شأنهم في ذلك شأن العناصر الجرمانية الأخرى. ومن الملاحظ أن البرجنديين كانوا قد اعتنقوا المسيحية على المذهب الأريوسي في بداية عهدهم بالمسيحية مما سبب الكثير من المعاناة للكنيسة الاثناسيوسية في أوروبا، كما أنهم كانوا قوماً مسالمين بطبيعتهم، ولكنه تحت ضغط هجمات الهون اضطروا لاستخدام العنف في شق طريقهم حتى سمح لهم القائد الروماني ايتيوس Aetius بالاقامة في الجزء الشرقي من فرنسا في عهد زعيمهم جنديكار Gundicar عام ٤١٣م. وقد استغلوا فرصة اشتراكهم مع الرومان والقوط الغربيين في صد الهون والانتصار عليهم في موقعة شالون Chalons عام ٤٥١م ليتوسعوا سلمياً في المنطقة الواقعة بين الألب والرون وهي المنطقة التي عرفت بأسمهم.

وعن علاقة البرجنديين بالإمبراطورية الشرقية، فيبدو أن العلاقات بينهما كانت طيبة وتميزت بولاء الملوك البرجنديين للاباطرة الشرقيين الذين أضفوا عليهم ألقاب التشريف، وهي الألقاب التي اعتبرها البرجنديون أنها أضافت إليهم العظمة والمجد. أمّا فيما يتعلق بعلاقة البرجنديين بالفرنجة فلم تكن علاقة سليمة خاصة في عهد الملك كلوفس Clovis

(٤٨٢-٥١١م) الذي دامت حروبه معهم أكثر من عشرة سنوات رغم أن زوجة كلوفس كانت برجندية. ولم تستمر مملكة البرجنديين طويلاً فقد أنهى أجلها في الربع الأول من القرن السادس الميلادي لأنها لم تكن مملكة قوية، ولم تستطع الصمود أمام أحداث العصر وأخطاره.

### ثالثاً: الوندال: Vandals

الوندال من الشعوب الجرمانية الشرقية شأنها في ذلك شأن البرجنديين، وقد غادروا ساحل بحر البلطيق في وقت سابق لتحرك القوط الغربيون. ومع حلول القرن الأول الميلادي نجدهم قد نزلوا في سيليزيا وبوهيميا، وعلى أثر الاضطرابات التي أثارها حرب الماركوماني Marcomani (بوهيميا) عام ١٦٦م، تعرّضت هذه الأقوام للتفرق والتشتت، فتحرك إلى المجر شعب الوندال الأسدنجيين Asdings الذي اشتق اسمه على ما يبدو من اسم البيت المالك فيه، أما الوندال السيلنجيون Silings فقد بقوا في سيليزيا الذي يبدو أن إسمها جاء تحريفاً للاسم سيلنجيا Silingia وبعد ما يقرب من مائة عام هاجر عدد منهم إلى الحوض الأوسط لنهر المين، وأصاب الوندال الاسدنجيين الضعف فترة من الزمان بسبب صراعمهم مع القوط الغربيون. وفي نهاية القرن الرابع الميلادي أدركوا أنّ الأرض التي يعيشون عليها عند نهر ثيس Theiss لا تفي باحتياجاتهم، لذلك غادروا عدد كبير منهم تحت قيادة ملكهم جوديجسيل Godigisel وانضموا إلى الآلان الذين فروا من أمام الهون وعبروا نهر الدانوب الأعلى حيث توقفوا هناك. وظلوا مدة خمسة سنوات داخل الإمبراطورية بوصفهم معاهدين. وحدث في عام ٤٠٦م أن تغيرت الأوضاع حين اضطرت الإمبراطورية لسحب قواتها من حدود نهر الراين لتواجه خطر القوط الغربيين، وكان في ذلك فرصة للوندال الاسدنجيين والآلان الذين عبروا نهر الراين وازدادوا عدداً بفضل ما انضم إليهم من السوفيي والوندال السيلنجيين في أواخر العام نفسه (٤٠٦م).

وعانت جموعهم المتناثرة من الفرسان في الجانب الأكبر من فرنسا فساداً وتدميراً طوال السنتين التاليتين دون أن تواجه أية مقاومة منظمة، باستثناء مدينة تولوز Toulouse التي قاومت هجماتهم بفضل أسقف المدينة الذي استبسل في الدفاع عنها. ولكن هذا التخريب ما لبث أن توقف عندما عبر الوندال وحلفاؤهم جبال البرانس ونزلوا بإسبانيا حيث عاثوا في الأرض فساداً

لمدة سنتين أخريتين. ولم يتوقف هذا الفساد إلا عندما تدخلت روما. وعقدت في عام ٤١٠ تسوية مؤقتة، نزل بموجبها الوندال الاسدنجيون والسويفي في جاليسيا Galicia والوندال السيلينجيون في اندلوسيا Andalusia ، على حين استقر الآلان في البرتغال وشمال شرق إسبانيا. ورغم ذلك فإن روما لم تنسَ سياستها القديمة وهي سياسة (فرق تسد) وعهدت إلى واليا ملك القوط الغربيين في عام ٤١٦م بمهاجمة الوندال في إسبانيا، وكانت تهدف من وراء ذلك أن يهلك الطرفين. وقد نجح واليا في مهمته نجاحاً باهراً وسحق الوندال السيلينجيين سحقاً. واضطرت بقايا الآلان أن تندمج في الوندال الاسدنجيين. ولما أحست روما بأن القوط الغربيين أصبحوا قوة أكثر مما ينبغي استدعتهم من إسبانيا ومنحتهم الأراضي في اكوتيتين. وفي الوقت نفسه لجأت روما إلى السويفي لضرب الوندال والآلان، ونجحت عناصر السويفي في مهمتها ودفعوا بالوندال والآلان إلى جنوب إسبانيا حيث أعادوا جمع شملهم مرة أخرى وصدوا جنود الرومان، كما نجحوا أيضاً في إسقاط المدن الساحلية الحصينة بفضل ضرباتهم القوية التي انهالت على المدن من البر والبحر حتى سقطت أشبيلية Seville وقرطاجنة Cartagena ونهبوها.

وفي عام ٤٢٨م أصبح جيسريك Gaiseric (٤٢٨-٤٧٧م) ملكاً على الوندال، ويُعد جيسريك من أهم شخصيات عصره، فقد كان سياسياً بارعاً فاق كل زعماء البرابرة عدا ثيودريك وكولفوس، فضلاً عن كونه محارباً شجاعاً فهو الذي أدار دفة غزو افريقية .

فقد كان الساحل الأفريقي غير مستقر الاحوال حيث كانت الثورة قائمة بين سكانه البربر Moorish، يضاف إلى هذه الثورة ما أضافه المذهب الدوناتى المسيحي من انشقاق، هذا في الوقت الذي لم يكن لدى القائد الروماني بونيفاس Boniface القوات الكافية لصد أي غزو عليه.

أمّا عن أسباب غزو الوندال للساحل الأفريقي فيرى البعض أنّ القائد

الروماني بونيفاس استدعى الوندال بعد ما استبدت به الغيرة من ايتيوس، وهو قائد

روماني أيضاً قربته الإمبراطورة بلاسديا إليها، ولكن بونيفاس ندم على استدعاء الوندال وحاربهم.

والجدير بالذكر ان جيسريك قاد الوندال في عام ٤٢٩م -وكان عددهم حوالي ثمانين ألفاً- وعبر مضيق عمودي هرقل (جبل طارق) ونزلوا بالساحل الشمالي الأفريقي وتحالفوا مع قبائل البربر وهزموا القائد الروماني بونيفاس في معركة ضارية وحاصروه في مدينة هيبو Hippo الساحلية أربعة عشر شهراً. ورفض القديس أوغسطين الذي كان أسقفاً لتلك المدينة أن يغادرها والهيب شجاعة سكانها بعظاته، وانقذته وفاته في عام ٤٣٠م من أن يكون شاهد عيان لهزيمة جديدة تلحق بالقائد الروماني بونيفاس. وأخيراً سقطت مدينة هيبو واضطر الرومان إلى التخلي عن الساحل الأفريقي عام ٤٣١م. وبعد أربع سنوات (٤٣٥م) أعترف الإمبراطور فالنتينيان الثالث بموجب معاهدة بقيام مملكة الوندال. وكانت هذه هي الدولة الثالثة التي يؤسسها البرابرة ولم يقدر لها أن تعمر طويلاً.

وعلى أية حال فقد كان لمؤسسها بعض الأفكار الجيدة وظهرت عبقريته في الاستفادة من مميزات وضعه الجديد، فاستولى على قرطاج في عام ٤٣٩م، وحاول بعث القوة البحرية التي كانت هذه المدن قاعدتها. وبنى الوندال السفن وشيدوا قوة بحرية واستولوا على جزر كورسيكا وسردينيا وجزر البليار، وأخذوا يغيرون على سواحل تسكانيا وبحر إيجه،

وبعبارة أخرى أخذ جيسريك يتحدى القسطنطينية كما فعل مع روما، وأصبح سيد البحر المتوسط.

ونتيجة الغزو الوندالي للساحل الأفريقي فقدت الإمبراطورية الرومانية جزءاً هاماً من أراضيها كان يمدّها بالغلال فضلاً عن ضياع الجزية. والمهم أنّ دولة الوندال قد نمت وزادت قوتها خاصة بعد بناء البحرية الوندالية. ولكن الوندال عاشوا أغراباً في هذه المنطقة لاعتناقهم المذهب الاربيوسي المخالف لمذهب أهل المنطقة الذين دانوا بالمذهب الاثناسيوسي الذي دانت به روما والمذهب الدوناني الذي دان به جانب من سكان الشمال الأفريقي.

وجاءت الفرصة للوندال لضرب روما عام ٤٥٥م وترجع هذه الأحداث إلى مصرع الإمبراطور فالنتينيان الثالث على يد أحد أعضاء مجلس الشيوخ ويدعى بترونيوس Petronius الذي أجبر الإمبراطورة الأرملة يودوكسيا Eudoxia على الزواج منه، فسرعان ما طلبت يودوكسيا مساعدة الوندال، فتحرك الوندال عبر البحر لمساعدتها وحاصروا روما، ولم تنجح محاولات البابا

ليو الأول في إنقاذ المدينة وابتحت روما للنهب لمدة أربعة عشر يوماً بطريقة بربرية أصبح معها أسم الوندالية Vandilism يطلق على كل تخريب يتم فيه التدمير لاشباع رغبة التدمير فقط. وقد حكم جيسريك البحر المتوسط بعد ذلك عشرين عاماً متحدياً الإمبراطوريتين ومات في عام ٤٧٧م وماتت معه عظمة شعبه، لأن مملكة الوندال قد مزقتها الخلافات الدينية وثورات البربر، وأخيراً سقطت على يد القائد البيزنطي بلزاريوس Belisarius في عهد الإمبراطور جستينيان الأول عام ٥٣٤م.

#### رابعاً: قبائل الهون Huns

كان من سياسة جيسريك ملك الوندال تحريض شعوب البرابرة للانقضاض من كل جانب على الإمبراطورية التي كان القائد الروماني ايتيوس يحاول أن يستعيد فيها بعض السلطة والنظام. وكان من الذين لبوا هذه الدعوة في هذه المرحلة قبائل الهون تدفعهم بعض العوامل الأخرى.

والهون من القبائل الاسيوية التي كانت تسكن منطقة السهوب الاسيوية بين جبال التاي والاورال، ويتميز الهون عن الرومان برؤسهم المستديرة وأنوفهم المسطحة وعيونهم الغائرة وشعرهم الاسود الداكن، وكانوا يعتمدون على الرعي في معيشتهم، اذ يتبعون العشب جنوباً في الشتاء، وشمالاً في الصيف. وأثناء تحركات الهون توقفوا في وسط أوروبا زهاء نصف قرن من الزمان واضعين تحت نيرهم القوط الشرقيين والجبدي Gepide وقبائل الماركوماني Marcomanni وسلاف الجنوب. وكان يحكمهم أتيلا Attila (٤٣٣-٤٥٣م) أبن موندزوك Mundzuk ، وكان الرمز الديني للهون خنجر مغروس في الأرض. وتقول الاسطورة أن أحد الرعاة عثر على خنجر كثير الصدأ في حقل كانت ترعى فيه ماشيته فحملة إلى أتيلا الذي اعتقد أنه خنجر "إله الحرب"، وأن العثور على هذا الخنجر بهذه الصورة يشير بأن أتيلا سوف يغزو العالم. وتضيف الأسطورة أنه منذ ذلك الوقت رغب أتيلا أن يحكم الهون بمفرده، فأمر بقتل شقيقه بلدا Bleda وقد بدأ أتيلا في أعين شعبه ألهاً مقدساً وسمى نفسه "سوط الإله" مضيفاً إلى ذلك أن الحشائش لا تنمو في الأرض التي تطاؤها فرسه، ولعل ذلك يشير إلى كثرة الدمار والخراب الذي تحدثه تحركات قواته.

وعلى أية حال فقد بدأت تحركات الهون ضد الإمبراطورية عندما قام أتيلا بهجوم مضلل ضد الجانب الشرقي من الإمبراطورية، ليجبر الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني على سحب قواته

التي أرسلها لمحاربة جيسريك الوندالي الذي حرضه على مثل هذا العمل. عبر أتتلا الدانوب بالقرب من مارجوس Margus ودمر العديد من المدن ذكر البعض أنها سبعون مدينة، ولم يجبر الإمبراطور على سحب قواته من الجبهة الوندالية فحسب، بل على زيادة قيمة الجزية التي تدفعها الإمبراطورية للهون وان تتخلى الإمبراطورية للهون عن الضفة اليمنى لنهر الدانوب.

بعد هذه الأحداث لجأ الإمبراطور الشرقي ثيودوسيوس الثاني إلى التآمر على اغتيال أتتلا، واعتقد أنه نجح في ضمّ وزيره إدكون Edecon إلى جانبه. وعلم أتتلا بهذه المؤامرة في الوقت الذي كان لديه بعض سفراء الرومان في قصره الخشبي في بانونيا Pannonia ، ولكنه تصرف على عكس ما كان متوقع، واكتفى بتوجيه اللوم للإمبراطور على تأمره ضد

سيده كعبد سيء. وعقب وفاة ثيودوسيوس الثاني عام ٤٥٠م، وجد أتتلا في خلفه

مارقيان Marcian (٤٥٠-٤٥٧م) عدوا جسوراً فقد أعلن أن لديه ذهباً لأصدقائه

وسيفاً لأعدائه.

ولم يكن أتتلا بالرجل الذي توقفه كلمات التهديد، ولما كانت القسطنطينية مدينة منيعة وحصينة قرر أن يوجه الضربة إلى مكان آخر، واتجه إلى بلاد الغال على رأس قواته التي قدرها البعض بحوالي ستمائة ألف وعبر نهر الراين وسلب ونهب ثم عبر نهر الموزل Moselle والسين وسار إلى مدينة أورليانز Orleans ، ولذا الناس بالفرار أمامه في رعب وذعر لا يوصفان، لأن أتتلا لم يترك حيثما مرّ لبنة على أخرى أو حجراً على حجر. ولم ينج من مدن هذه المنطقة سوى مدينة تروي Troyes بفضل مساعي أسقفها القديس انيانوس Anainus ، الذي رفع الروح المعنوية للسكان.

وعندما كان أتتلا في أورليانز شوهدت سحابة ترابية في الأفق فظن الناس أن الله قد استجاب لدعواتهم، وأنها مساعدة الله، والحقيقة أن الذي أتى هو القائد الروماني ايتيوس الجرمانى الأصل ومعه القوات الرومانية وحلفاؤه من القوط الغربيين بقيادة ثيودريك والسكسون والبرجنديون والفرنجة.



تراجع أتتلا في البداية أملا في أن يختار ميدانا للقتال أكثر ملاءمة لفرسانه وتوقف بالقرب من شالون Chalons حيث دارت معركة عام ٤٥١م انتهت بهزيمة الهون، هذه الهزيمة التي انقذت الغرب من سيطرة قبائل الهون. وكانت معركة رهيبة انتشر في أرضها جثث مائة وستين ألف رجل على حد تقدير بعض المؤرخين.

بعد هذه الهزيمة انسحب أتتلا وعاد إلى معسكره. ويقول جوردانس Jordanes (عاش في القرن السادس الميلادي) القوطي ومؤرخ هذه المعركة، "ورأى المنتصرون وسط هذا المعسكر كومة هائلة مصنوعة من سروج الخيول، وفوقها وقف أتتلا وتحت الهون والمشاعل في أيديهم مستعدون لاشعال النار فيها إذا اقتحم الأعداء حصونهم، وهكذا فإن أسدا يتعقبه الصيادون حتى مدخل عربته يقف مرة أخرى ويخيفهم بزفيره". ولم يجرؤ ايتيوس وحلفاؤه على التقدم. وعاد أتتلا وقواته إلى ألمانيا في العام نفسه ٤٥١م.

في العام التالي ٤٥٢م عوّض أتتلا نفسه عن الهزيمة بغزو إيطاليا فدمر وخرّب أكويليا التي التجأ سكانها إلى البرك المجاورة حيث أنشأ أبناؤهم مدينة البندقية، وتحولت بادوا Padus إلى رماد وخضعت له بعض المدن مثل فيرونا وبافيا وميلانو. وفي قصر ميلانو شاهد أتتلا صورة تمثل الإمبراطور جالسا على العرش ورئيس الهون ساجداً أمام قدميه، فأمر الرسام أن يضع ملك الهون على العرش والإمبراطور ساجداً تحت قدميه حتى تكون الصورة أقرب إلى الحقيقة.

وفي الوقت نفسه لم يكن لدى الايطاليين جنوداً يدافعون عنهم فخاطر البابا ليو الأول بحياته في سبيل انقاذهم، وذهب إلى معسكر أتتلا مع مندوبي الإمبراطور، وسلّم إليه كل ما طلبه من الهدايا ووعد بدفع الجزية، وعندما سمع أتتلا باقتراب ايتيوس تراجع إلى بلاده، في الوقت الذي انتشر وباء الطاعون في جيشه فأفنى منه الكثير.

وبعد بضعة أشهر مات أتتلا في قريته الملكية بالقرب من نهر الدانوب عام ٤٥٣م، وألقت الشعوب التي أخضعها النير عن نفسها، ودخل زعماء الهون في صراع دموي من أجل الحصول على التاج مما قلل من أعدادهم وتبددت قواتهم مثل تلك الاعاصير الهوجاء التي تزول ولا تترك وراءها سوى آثار الدمار والخراب.

بعد وفاة بترونيوس عام ٤٥٥م تولى عرش الإمبراطورية في روما ايتيوس

455-456 Avitus 455-456م بتدخل من القوط الغربيين ثم تدخلت عناصر السوفي وعينت ماجوريان Majorian (٤٥٧-٤٦١م) خلفاً له، وأخذ البرابرة يتصرفون في الإمبراطورية الغربية كما يشاءون ولكنهم خجلوا من تولي منصب الإمبراطور.

وبدأ ماجوريان النبيل الخلق وسط هذا الفساد الذي يحيط بالإمبراطورية داخلياً وخارجياً، ورأى أن يبدأ بضرب الوندال في الساحل الأفريقي فجمع أسطولا لهذا الغرض ولكن هذه الاستعدادات لم تصل إلى نهايتها فدمرت، ولعل ذلك مرجعه إلى تواطؤ بعض قواده مع الوندال. فعاد ماجوريان من إسبانيا إلى إيطاليا كسير القلب ثم ما لبث أن أُغتيل.

تولى بعد ماجوريان ثلاثة أباطرة هم سفيروس Severus (٤٦١-٤٦٥م)، وانثيموس Anthemius (٤٦٧-٤٧٢م) وأولييريوس Olybrius (٤٧٢م). ولكنهم كانوا أشباح أباطرة، ونلاحظ أن العرش الروماني في روما ظل خالياً لبعض الوقت في هذه المرحلة

كما حكم جليسيروس Glycerlus لمدة عام (٤٧٣م) وجوليوس نبوس Julius Nepos لمدة عام أيضاً ٤٧٤، وأخيراً أعطى أورستس البانوني The Pannonian Orestes صولجان الإمبراطورية لولده رومولس أوغسطولس Romulus Augustulus عام (٤٧٥م) وهو طفل لم يناهز السادسة من عمره، وقد جمع في اسمه ما بين مؤسس روما ومؤسس الإمبراطورية.

وإذا القينا نظرة عامة على الإمبراطورية الرومانية الغربية في هذه المرحلة نلاحظ أنه قد تم ضياع الكثير من أجزائها، فقد تراجع الرومان من انكلترا، وتغلب الوندال على الساحل الأفريقي وسيطر القوط الغربيون على أجزاء من غرب أوروبا كما استقر البرجنديون في جانب من غالة. أما الألمان فقد اتخذوا من الراين الأعلى مستقراً لهم، واتخذ الفرنجة من الراين الأدنى موطناً. وأذنت كل هذه التطورات بنهاية الإمبراطورية في الغرب. والحقيقة أن مظاهر الانحلال تفاقمت تفاقماً ملحوظاً في هذه المرحلة وشمل الاضطراب كافة أرجاء الإمبراطورية الغربية.

وفي هذه الأثناء ظهر أوداكر أحد زعماء قبائل الهيرول الذي منحه الإمبراطورية مستقرات في الأراضي الإيطالية. ودخل أوداكر في عام ٤٧٦م العاصمة رافنا وعزل الإمبراطور رومولس ونفاه خارج إيطاليا. وبُعزل إمبراطور الغرب أصبح إمبراطور الشرق الإمبراطور البيزنطي زينو Zeno (٤٧٤-٤٩١م) الإمبراطور الأوحدممثل للسلطة الرومانية التقليدية. وقد اعترفت

الجماعات الجرمانية التي نزلت في الغرب الأوربي وأسست لنفسها دولاً وممالك بسلطان الإمبراطور البيزنطي وإن كان سلطة اسمية. والمهم أن الغرب الأوربي ظل منذ عام ٤٧٦م والكرسي الإمبراطوري شاغراً حتى عام ٨٠٠ عندما نصب شارلمان إمبراطوراً على الغرب الأوربي .

### خامساً: الفرنجة Franks

يحدثنا التاريخ عن الفرنجة في منتصف القرن الثالث الميلادي عندما هزمتهم جيوش الإمبراطورية بالقرب من مدينة مينز Mains واستقرار الفرنجة البريون على منحدرات الراين الغربية بعد ذلك بنحو مائة وخمسين عاماً بعدما استولوا على مدينة كلوتي Cologne عام ٤٦٣م، واتخاذها عاصمة لهم، كما نجحوا أيضاً في مد نفوذهم على وادي الراين من مدينة اكس لاشابل (آخن) Aachen حتى مدينة متر Metz. كما بقيت بعض قبائل الفرنجة على ضفة نهر الراين الشرقية واطلقوا إسمهم على هذه المنطقة فعرفت باسم فرانكونيا. Franconia ولعل الفرنجة البحريون (الساليون) The Salic Franks قد اشتقوا اسمهم من نهر سالا Sala الذي يحمل الآن اسم إجسيل Ijssel في الأراضي المنخفضة. وانتشروا في هذا الإقليم جنوباً وغرباً. وفي عام ٣٥٦م سيطروا على الإقليم الممتد من نهر السوم Somme ونهر المويز Mcuse. وكان انتشارهم سلمياً بطريق الهجرة. كما أن الإمبراطورية الرومانية كانت تدعوهم لتعمير الأرض القليلة السكان. وهكذا بالهجرة والإستدعاء استقر الفرنجة في الجزء الشمالي من غالة قبل حلول عام ٤٣٠م.

ويصف الفرنجة الساليون أنفسهم في مقدمة "القانون السالي" بأنهم الشعب المجيد الحكيم النبيل القوي الجسم الجميل الجريء، كما أنهم لم يُعدّوا أنفسهم برابرة بل كانوا يقولون أنهم احرار حصلوا على حريتهم بقوة السلاح. وإن كلمة Franks تعني الحر الذي نال حقوقه السياسية. وكانوا طوال القامة شقر الوجوه، يلفون شعرهم الطويل ويتركونه يسقط من رؤوسهم بطريقة تشبه ذيل الحصان، يحلقون لحاهم ويطلقون شواربهم ويلتف حول وسطهم أحزمة من الجلد يلقون فيها بسيفوفهم وبلطهم العسكرية. وكان جميع الرجال جنوداً محاربين تعلموا فنون الحرب منذ صباهم.

ويمثل الفرنجة حلقة هامة في تأريخ الغزوات الجرمانية للغرب الأوربي فإن دولتهم حققت بقاء طويلاً، كما أنهم نجحوا في مزج مقومات الحضارة الرومانية مع خصائص وتقاليد الفرنجة الأصلية على نطاق واسع. ويمكن تحديد تأريخ دولة الفرنجة بسنة ٤٣١م كبداية لها وهي السنة التي هاجم فيها ملكهم كلوديو Chlodio مدينة كلوني، وسنة ٩١١ كنهاية لها، وهي السنة التي بطل استخدام لقب إمبراطور بين حكام الفرنجة. ويمكننا من باب التيسير على دراسة تأريخ الفرنجة أن نقسم تأريخهم إلى قسمين:

أولاً: الدولة الميروفنجية نسبة إلى مروفك Merovech الجد الأكبر للفرنجة، وتمتد من عام ٤٣١م إلى عام ٧٥١م .

ثانياً: الدولة الكارلونية، ويلمع من بين حكامها الإمبراطور شارلمان ويمتد عصرها من سنة ٧٥١م حتى سنة ٩١١م.

وفيما يتعلق بالدولة الميروفنجية، فأول ما يطالعنا من ملوكهم المعروفين هو كلوديو الذي هاجم مدينة كلوني عام ٤٣١م وانهزم على أيدي القوات الرومانية بقيادة ايتيوس. وإن كان كلوديو فشل في الاستيلاء على كلوني فإنه نجح في السيطرة على الجانب الشرقي من غالة حتى نهر السوم غرباً واتخذ مدينة تورناي Tournai عاصمة له. وخلف كلوديو على العرش ملك آخر يدعى مروفك (أبن البحر)، ولعل ذلك مجرد خرافة ولكن اسمه التصق بالدولة فعُرفت باسم الدولة الميروفنجية. وقد أغوى مروفك هذا ابنة شيلدريك Childeric وتدعى باسينا Basina التي كانت زوجة أحد الملوك الثورنجنين Thuringian ، فجاءت إليه لتصبح ملكة بعدما فتنت به ووصفته بأنها لا تعرف رجلاً أحصف منه عقلاً، أو أقوى منه جسماً أو أدمث منه خلقاً. وانجبت باسينا من زوجها مروفك ابناً سمته كلوفس الذي حكم الفرنجة من عام ٤٨٢ حتى عام ٥١١م والذي يُعد أقوى شخصيات عصره.